

ويقول أبو الشيمس في هذا الباب ذاكرا ان نعبات الغراب انما هي اعلان عن قرب وقوع الغربة ، والبماد، وبهذا تحول المعنى اللفظي لكلمة (غراب) من اطلاقها على طائر بعينه الى اشتقاق يفهم منه الغربة والبعد :

اشاتك والليل ملقى الجران

غراب ينوح على غصن بسان
احص الجناح شديد الصباح

بيكي بعينين ما تذرمان
وفي نعبات للغراب اغتراب

وفي البان بين بعيد التدان (7)

اما جميل بثينة فانه يحمل الغراب تيمة فراقه لأحبته ، وكأته هو المسؤول عن ذلك فصوته تبيح يخبره دائما بان لا لقاء له مع حبيبته لذا فهو يدعو عليه بسويات الفراق ، ويكسر الجناح :

الا يا غراب البين فيم تصيح

فصوتك مشني الي تصيح
وكل غداة لا ابالك تنتحي

الي فتلقتني وانت مشيح
تحدثني ان لست لاتي نعمة

بمدت ، ولا ايسى لديك نصيح (8)
ويقول ايضا :

الا يا غراب البين لونك شاحب

وانت بروعات الفراق جدير
فان كان حقا ما تقول فاصبحت

همومك شتى والجناح كسير (9)

ومثل هذا قول قيس بن زريح في دعائه على الغراب بان لا يحمل عشه بيضة واحدة ، وان يكون جناحه واهيا ، وهو وان ينكر على الغراب ان يكون عنده علم الغيب الا انه يبدو مقتنعا بما يوحيه صوته من معنى الفراق والتطيمة ، فكيف به والغراب يمر

عن شماله بما توحيه فكرة زجر الطائر ، ومروره من شمال الانسان (10) ، من معاني الشؤم والطيرة :

الا يا غراب البين ما لك كلما

تذكرت لبني طمرت لي عن شماليا
اعنك علم الغيب ام انت مخبري

عن الحي الا بالذي قد بداليا
فلا حملت رجلاك عشا لبيضة

ولا زال عظم من جناحك واهيا (11)

ولعلة ما وجدناهم يميزون بين صيحات الغراب، فاذا صاح مرتين فهو شر ، وان صاح ثلاث مرات فهو خير على قدر عدد المرات (12) .

ومن باب التطير من الغراب اطلقوا عليه اسم الاعور ، وهو ليس كذلك ، لانه كما يقول الجاحظ (ناقد البصر ، صاني العين حتى قالوا : اصفى من عين الغراب، كما قالوا اصفى من عين الديك، وسموه الاعور كناية) (13) فهل سموه بالاعور تخلصا من ذكر لفظه الذي يتشامون منه ؟ ان كان كذلك فانهم قد تشاموا من الاعور ايضا - والارجح انهم وصفوه بالاعور ، وكانهم يشتمونه دلالة على كرههم له .

اما استعمال لفظ الغراب لدلالته اللفظية على اشتقاق أعمال تتناسب وعقلية السامع والمتحدث فهو المجال الذي نريد عرضه هنا ، فهم حين يرون الغراب لا يتطرون من رؤيته كما اظهرت الشواهد السابقة نحسب ، بل انهم سرعان ما تحدثهم نفوسهم بهواجس سببها طبيعة تركيب حروف كلمة الغراب ، فهم يشتمون منه لفظ الاغتراب والغربة في الذهن ، وهو بهذا نذير سوء لمن يتملكه الهاجس بهذا الشكل ، ولولا رهانة حس المتشائم لما اشتق من كلمة الغراب ، الغربة وهو الذي يستطيع ان يشتق منها الرغبة ، والبر ، ورغب ، ورب ، وير مما يمكن ان تولفه حروف لفظ الغراب (14) يقول كثير عزة ، وقد راي غرابا ينتف

(6) شرح ديوان عنتر بن شداد 103 - 104

(7) عيون الاخبار 194/1

(8) ديوان جميل بثينة 50 .

(9) ن . م . 94

(10) راجع كتابنا التعابير القرآنية والبيئة العربية : 165

(11) الحاسة البصرية 197/1 ، وانظر ايضا ابياتا اخرى في التطير في كتاب المعاني الكبير لابن قتيبة

262/1 ، الحيوان 429/3 وهجاسة ابن الشجري : 210 ، بلوغ الارب ، 337/2 .

(12) الحيوان 458/3

(13) ن . م . 335/2 وقد ورد ذلك في شعر الحطيئة : ديوانه برواية ابن السكيت : 155 ، وفي شعر ابي حية النميري في الحيوان 428/3 .

ريشه فتجسدت امامه كل معاني الشر ، اما البان
الذي وقف عليه الغراب فسرعان ما اشتق منه لفظ
البنين :

رايت غرابا واتما فوق بانه

ينتف اعلى ريشه ويطايره
نقلت ولو اني اشاء زجرته
بنفسي للنهدي هل انت زاجره

والنهدي رجل من بني نهد - وهم من ازجر
العرب واكثرهم تنسيرا لحوادث المستقبل من ظواهر
بيرونها :

مقال غراب باغتراب من النوى

ويالبان بين من حبيب تعاشره (15)

فالشاعر هنا لم يكتب باشتقاق الغربة من لفظ
الغراب بل اشتق من لفظ البان البين والسفراق في
الوقت الذي اترنت دلالة البان عند الشعراء المتغزلين
بوصف المحبوبة ، لانهم كثيرا ما شبهوا النساء
الرشيقات به ، ولكن الشاعر وجه دلالة الكلمة من
اطلاقها على غصن بعينه الى دلالة لفظها بها يشتق
منه . وقد بنوا على هذه الرواية خبرا فصلوا فيه
كيف ان كثيرا حين راي الغراب ينتف ريشه ، ويطايره
عن راسه ، تشام ثم ذهب الى عراف من نهد فأخبره
الخبر المشؤم (16) بوفاة صاحبه :

ويقول شاعر آخر جامعا دلالتي البين والغربة
في بيتين من الشعر :

تغنى الطائران ببين سلمى
على غصنين من غرب وبار
فكان البان أن بانيت سليمان
وفي الغرب اغتراب غير دان (17)

والصرد

طائر آخر لم يذكر القدماء ان العرب تشاموا
منه تشاؤمهم من الغراب ولكن الشاعر المحب الياس
من وصال حبيبه يغير دلالة الكلمة من اطلاقها على
طائر بعينه الى اشتقاق لفظ ينسجم مع نفسيته المثال
فيذكر التصريد وهو التقليل دلالة جديدة يحيط بها لفظ
الصرد الذي رآه واقفا على غصن من الغصون :

دعا صرد يوما على غصن شوحط

وصاح بذات البين منها غرابها
نقلت أنصريد وشحط وغربة
نهذا لمري نايتها واغترابها (18)

اما الشوحط الذي هو ضرب من الشجر تتخذ
منه القسي فان الشاعر هنا اشتق لفظ الشحط
وهو النوى فزاده ذلك أسي وحزنا .

والفصن الذي اترنت دلالته في ذهن الشعراء
والناس عامة بالخضرة والجمال والفتنة وقرنوا حركاته
الرشيقة اذا لابعته الريح الهادئة بتهادي المحبوبة ،
هذا اللفظ نجده عند بعض الشعراء يفقد دلالاته الجميلة

14) على ان هناك امثلة اخرى لشعراء رفضوا فكرة التشاؤم من الغراب ، وتساخروا بانهم اذا
تصدوا امرا فانهم لا يثنيهم عنه صوت غراب او غيره انظر الحيوان 149/3 ، عيون الاخبار
145/1 ، اللسان مادة (وقي) . اما عبيد الله بن قيس الرقيات فانه لم ينكر التطير من الغراب
فحسب ، بل تجاوز ذلك الى التناؤل به ، واعتبر نعيته رسالة بشرى من صاحبه سمعى بان
وصالها سيكون قريبا . ديوان عبيد الله بن قيس الرقيات : 84 .

15) ديوان كثير عزة ، الحيوان 441/3 وقد ذكروا قصة منسوية لابى ذؤيب يتشام فيها من جملة امور
يشتق منها الفاظا يفسرها حسب هواه ، وانه ما ان قدم المدينة حتى سمع بكاء المسلمين على
الرسول صلى الله عليه وسلم ونعيمهم له - بلوغ الارب 314/3 .

16) الموشى : 175 وفي رواية اخرى ان العراف كان من بني الازد ، وانه قال له تذهب مصر ،
وتراها قد ماتت او خلف عليها رجل من بنى عينا ، فلما انصرف وجدها قد تزوجت ، عيون
الاخبار 148/1 .

17) الحيوان 440/3 ونسب ابن قتيبة البتتين للشاعر المسمى بالمعلوط عيون 149/1 ، وهما في نثار
الازهار لابن منظور : 75 منسوبان لجحدر بن الفتمسى .

ويقتصر على دلالة واحدة مؤلمة يشتقونها من بعض حروفه ، وهي الفمص والحركة والالم :

أقول يوم تلاقينا وقد سجت
حابتان على فصنين من بان
الآن أعلم ان الفصن لي فمص
وأما السبان بين عاجل دان
فرحت تخفني ارضى وترفني
حتى ونيت وهذ السير اركاتي (19)

وأذا كان الشاعر لا يرتاح لهبوب الجنوب لانها ريح تزيد ضيق نفسه بهوائها الحار فان المتشائم يضيف اليها دلالة اخرى لا ملاقة لها بطبيعة هذه الريح ، وانما يشتق منها لفظ الاجتناب عن الاحبة ، والبعد عنهم . اما الصبا التي طالما تغنى بها شعراء الغزل ؛ لانها تذكرهم بانفاس من يحبون ، او انهم يتخيلون عند هبوبها وشم نسايمها العليقة انها تحمل تحيات احبائهم البعيدين ، الا ان المتشائم ينسى كل هذه الصور الجبيلة ، ولا يبقى في ذهنه الا اللفظ الذي يشتقه عن تركيب حروفها وهي الاجتناب من الجنوب، والصبابة والهجر من الصبا اما القضية التي وقف عليها الغراب فقد اشتق منها لفظ قضب الهوى اي قطع المودة يقول ذو الرمة :

رايت غرابا ساططا فوق قضبة
من القضب لم يثبت لها ورق خضر
فقلت غراب لاغتراب وقضبة
لقضب الهوى هذي العيافة والزجر
وهبت جنوب باجتنايسي منهم
وهاجت صبا قلت الصبابة والهجر(20)

وتد جمع الجاحظ مجموعة من الالفاظ في قطعة شعرية انشدها على لسان صاحب الغراب الذي احتج لتشاؤم الناس منه بقوله :

نظرت واصحابي ببطن طويل
ضحيا وقد افضى الى اللبب الجبل
الى ظبية تعطو سيالا تصوره
يجانبيها الأمان ذو جدد طفل

نقلت وغفت الجبل جبل وصلها
تجذذ سلساك وانصرم الجبل
وقلت سيال قد تسلت مودتي
تصور غمونا صار جثماتها يعلو
وغفت الغدير الطفل طفلا أتت به
فقلت لأصحابي مضيتكم جهل
رجوعي حزم وامرأتي ضلة
كذلك كان الزجر يصدقني قبل (21)

فصاحب الغراب هنا يحتج على تشاؤمهم من الغراب ، واشتقاقهم الغربية منه ، وكل لفظ يحتمل عدة اشتقاقات قد يكون من ضمنها معان يتشام منها، فلم خص الغراب بها ؟ ولذلك جاء بالابيات التي شحنت بالالفاظ التي يمكن ان يشتق منها ما يدل على التشاؤم فقد رأى الشاعر ظبية تجاذب شجرة مع طفل لها فاشتق من السيل (نوع من الشجر) لفظة توحى له بان مودة صاحبه قد تسلت ، واما الجبل فهو تنبيه له بانها ستقطع جبل وصلها ، وتهجره . واشتق من الطفل المصاحب للظبية طفلا تده صاحبه اي انها ستزوج قريبا فتبتعد عنه... وهكذا من مشهد ولحد التقط الالفاظ اشتق منها ما يتشام منه ليستدل بذلك على ان الغراب ليس وحده الذي يتشام منه او يشتق من لفظه لفظ الغربية والاعتراب ...

ونجد عكس هذه الابيات ومعانيها في قصيدة لابي حية النسيري ينهج فيها منهجا مختلفا تماما عن منهج المتشائمين ، فهو ان سار مع قومه متجها الى ارضهم لا تسيره الا النية الصالحة والغال الجليل ، وكل ما يراه من مظاهر يتشام منها القوم ان هسى في نظره دواعي تدفعه الى الاستمرار على ما اقدم عليه فلان مر طائر سنيح لم يتشام منه بل لمسره بانه جار مر قربه ، وان اشتق القوم لفظ العقاب اذا راوا عقابا وتشاءوا منه فانه يشتق من نفس اللفظ صيغة تدخل السرور الي نفسه وهي ان القرب من الديار سيمتق بهم بدل البعاد ، وان راوا الدم وتشاءوا منه اشتق بسرعة لفظة ترسم في ذهنه دوام المحبة والصفاء ، وان راوا هدهدا فوق بانه كذلك في نظره هدى وبيان

(18) الحيوان 437/3 والبيتان في زهر الاداب 168/2.

(19) بلوغ الارب 335/2 وفيها تحريف صوبناه اذ كتبت الكلمة الاولى من البيت الاول اقوم ، وكلمة هد في البيت الثالث محرفة الى حد .

(20) ديوان شعر ذي الرمة 300 ، بلوغ الارب 336/2 .

للطريق الذي توجها نحوه وليس البين والفراق كما يشتق الآخرون .. اما اذا راوا حمامات واشتقوا من لفظها الحمام الموت او ربما الحمى (المرض) او حسم الفراق .. فان شاعرنا يتعامل ويشق من الحمامات حم القرب والوصال :

بدا اذ تمدنا عامدين لارضنا

سنيح فقل القوم مر سنيح

وهب رجال ان يقولوا وححموا

فقلت لهم جاز الي ربيح

عقاب باعقاب في السدار بعدما

مضت نية لا تستطاع طروح

يقالوا دم دامت مودة بيننا

وعاد لنا غصن الشباب قريح

وقال محابي مهدد فوق بائة

هدى وبيان في الطريق بلوح (22)

وقالوا حمامات فحم لتاؤها

وعانت لنا ربح الوصال تسوح

ومثل هذه الالفاظ التي ذكرناها الفاظ اخرى

تشارك دلالتها ومعانيها باختلاف نفسية السامع او

المتكلم فالزويحان يترنن في نفسية المتفائل بالروح

وشكله الجبيل يضى على دلالة لفظه معنى الفرح

والاستبشار ، اما المتشائم فانه يتطير منه لانه يذكر

(بان طعمه مر وان كان في العين والائف مقبولاً) (23) .

ونكر الوشاء بانهم تطيبروا من الخلاف

— وهو صنف من الصفصاف وحبه اكبر من الحمى —

لانهم اشتقوا من لفظه الخلف والخلاف والاختلاف (24)

ومن هذه الالفاظ ايضا الخروبة ، وهي نسبت

معروف ولكنهم اشتقوا منه لفظ الخراب ، ويروون

خبرا واسطورة عن النبي سليمان يؤكدون به صحة

ما يشتقون منه هذا اللفظ ، وذلك انهم يقولون بلسان

الشجر الذي كان في محراب سليمان النبي كانت متكلمة

بلسان ذلق فكانت الشجرة تقول : انا شجرة كذا وفي

دواء كذا فيلزم بها سليمان فيكتب اسمها ، وصفتها

وصورتها ، وتقطع وترفع في الخزائن حتى كان آخر ما

جاء منها الخروبة فتالت : انا الخروبة فقل سليمان

الآن تعبت لي نفسي ، واذن في خراب بيت المقدس (25).

ومن الالفاظ التي يعدل عنها الى غيرها مجموعة

لها معان معجبة معينة فيعدل عنها الى غيرها شد

تكون ضدها في المعنى وهو ما يسمى بالعربية بباب

الاضداد الذي بحث فيه علماء اللغة واختلفت آراؤهم

فيه فبعضهم اقر وجوده وراح يذكر العلل والاسباب

والشواهد التي تبين سبب وقوع هذه الظاهرة في

بعض الالفاظ وحكمة وجودها كالاصمى وابى

عبدة والسجستاني وابن السكيت وتطرب وابن

التيباري وغيرهم (26) ومنهم من انكر وجود هذه

الظاهرة اللغوية وتاول كل الالفاظ الواردة في اللغة

العربية لينكر وجود ما يسمى بالاضداد مثل ابن

درستويه الذي ذكره السيوطي في الزهر وانه ظف

كتاب ابطال الاضداد (27) ومنهم من اعتبر الاضداد

(21) الحيوان 444/3

(22) الحيوان 445/3 ، زهر الاداب 167/2 ، بلوغ الارب 336/2

(23) الحيوان 457/3

(24) الموشى للوشاء : 175

(25) عيون الاخبار 150/1

(26) من الف في الاضداد من القدياء محمد بن المستنير المعروف بتطرب المتوفى سنة 206 هـ وقد نشر

كتابه المستشرق برونله سنة 1900 ، وحقته هانس كونلز وطبعه ضمن مجلة اسلاميكا المجلد

الخامس سنة 1931 ونشر المستشرق اوغست هوفنر ثلاثة كتب في الاضداد هي الاضداد للاصمى

والاضداد لأبى حاتم والاضداد لابن السكيت وقد طبعت ببيروت سنة 1913 بطبعة اليسوعيين

وطبعت بطبعة الكاثوليك 1922 ، والف سعيد بن المبارك المعروف بابن الدهان كتاب (الاضداد)

ونشر ضمن مجموعة بتحقيق محمد حسين آل ياسين وطبع في النجف سنة 1953 ، ثم أعيد طبعه

ببغداد سنة 1963 ، والف ابو القاسم بن التباري المتوفى سنة 328 هـ كتاب الاضداد في اللغة وقد

نشر في ليون نشره المستشرق هولسا سنة 1881 ثم في 1925 ، واخيرا طبع بتحقيق

محمد ابو الفضل ابراهيم سلسلة تراث العرب - الكويت 1960 ، وقد كتب له تقى الدين عبد

التائر التميمي المصري ت 1005 هـ مختصرا لكتاب ابن التباري ، كما الف حسن بن محمد

الصنعاني المتوفى سنة 605 هـ كتابا في الاضداد ايضا (انظر كشف الظنون ج 1/115 - 116)

الطبعة الثالثة .

بل استعمل الصفة التي ذكرناها مع أنه لم يرد بها
التناؤل في هذا الموضوع .

ويقول شاعر آخر في نفس هذا المعنى :

بِلاقي من تذكر آل ليطى

كما يلقي السليم من العداد

وقد يستعار لفظ السليم للجريح المشقي على
الهلكة والموت ، وعدم إطلاق اللفظة أو استعارتها
للجريح مطلقاً توضح ما قلناه من أنها استعميرت تناؤلاً
ولكي يدخلوا السرور والامل في نفس الجريح أو
ذويه إذا شعروا ان جريحهم اشفى على التلف
والهلاك وقد انشد ابن الاعرابي :
يشكو اذا شد له حزامه

شكوى سليم فريت كلامه (31)

قال وقد يكون السليم هنا اللديغ ، وسمي
موضع نيش الحية منه كلما على الاستعارة ، على
ان هناك شاهداً آخر تذكره كتب اللغة في استعارة
لفظ السليم للجريح المشفى على الهلاك وهو قول
الشاعر :

وظيري بخراق اشم كأنه

سليم رماح لم تنله الزعانف (32)

ومن هذه الالفاظ المفازة وهي اسم للصحراء الواسعة
الاطراف التي قد يتوقع فيها الهلاك والضياح واطلق
عليها بدلا من تسميتها او وصفها بالمهلكة تناؤلاً لمن
يزرع السفر فيها ، وتبيننا له بالفوز والنجاح . قال
الاصمعي وابو عبيد وغيرهما : سميت مفازة على
جهة التناؤل لمن دخلها بالفوز كما قيل للاسود ابو
البيضاء وقيل للعطشان ريان (33) . على ان بعضهم
من ينكر الازداد ويتاؤل الالفاظ وجه اللفظة توجيها
آخر وأنها مفعة من قول العرب قد فوز الرجل اذا
هلك (34) . وارجح ان يكون لفظ المفازة من الالفاظ

منقصة للعرب وطعنا يتهمون به اصحاب هذه اللفظة
بالتناقض وقلة البلاغة وقد ساهم ابن الانباري بانهم
من اهل البديع والزيغ والازراء بالعرب (28) . وقد
عالج هؤلاء المؤلفون الفاظ الازداد وورودها في
اللغة والشعر وسنتناول ما يفيدنا في دلالة الالفاظ
والعدول عن معانيها التي وضعت لها اصلا الى معان
هي ضدها حقيقة ولكنهم يلجأون اليها لسبب قد يكون
تناؤلاً او مجاملة وتأديبا ، أو تهريا من حرج متبتدو
لبعضهم وكانها اعداد لفظ نفسه ..

ومن الالفاظ التي يعدل عنها الى ضدها ما يدخل
ضمن موضوع التناؤل والامل مثل تسمية العرب
المرض بالسالم .

واللديغ بالسليم

وقد نص الاصمعي وابو عبيد وغيرهما على ان
العرب سميت المرض بالسالم واللديغ بالسليم على
جهة التناؤل بالسلامة خلافا لما يحذر عليه منه (29)
ولكي يدخلوا السرور والامل في نفسه ونفس أهله .
ثم نسي الاصل وبقي لفظ السليم « الصفة »
يطلق اسما لكل من تلدغه حية ، يقول الشاعر :

ارقت ونام عني من يلوم

ولكن لم اتم انا والهموم

كأنى من تذكرها الأتقى

اذا ما اظلم الليل البهيم

ومن تلميل رؤية لم جهم

وقد خفي مع الغور النجوم

سليم مل منه اقربوه

واسلبه الجاوز والحميم (30)

فالشاعر هنا يشبه تقلبه على فراشه ليلا ،
وارقه بسبب تذكر محبوبته بتقلب اللديغ المتألم من
اوجاع السم في جسده ، ولكنه لم يستعمل اللفظ الاصل

(27) الزهر 396/1

(28) الازداد في اللغة لابن الانباري ص 2 . وانظر الناصبي لابن فارس ص 666

(29) عيون الاخبار 1/146 ، الازداد للسجستاني 114 ، لسان العرب مادة (سلم)

(30) بلوغ الارب 2/338

(31) لسان العرب مادة (سلم) تاج العروس (سلم) وتاؤل بعضهم لفظة السليم على أنها ليست من الازداد
وأنا هي من سلم اي انه مسلم لما به وما ذكرناه إعلاد مرجح عليه للتصويع التي ذكرناها .

(32) الصحاح ، لسان العرب ، تاج العروس مادة فوز

(33) لسان العرب (فوز)

لتي عدل بها عن ضدها تافؤلا وتيمنا ، وهو أمر شائع
بالضريبة وقد اشار اليه بعض الشعراء وهو يهجو
رجلا اسمه كثير بن ابيه ما سماه بهذا الاسم الا من
باب قلب المسيات الى اضدادها ولاته راى نفسه
تليلا عاجزا عن تعداد المناخر والامجاد ، يقول :

احب الفال حين راى كثيرا
أبوه عن اقتناء المجد عاجز
نسماه لقلته كثيرا
كتقليب المهالك بالمفاوز (35)

● وهناك الفاظ يعدل عنها الى اضدادها ادبيا
وحسن تخلص . فالبرص بما يوحيه من معانى الالم
في نفسية صاحبه او لما يثيره من مشاعر الاسف او
التقزز في نفسية السامعين عدل عنه العرب - في
بعض الالفاظ - الى لفظ آخر يكون به عنه .

فجديبة الابرش بن مالك بن فهم الازدي ملك
العرب نسي بالابرش الواضح (36) لانه كان ابرص
فهايت العرب ان تقول له الابرص فنكوا به عنه تهريا
من لفظة تذكره بعيبه او مرضه او ربما يشم منها لفظ
تعميسر وشتمية .

ومن هذه الالفاظ البصير للرجل الاعمى الذي فقد
بصره وقد ورد في قول النبي صلى الله عليه وسلم
اذهب بنا الى فلان البصير وكان اعمى .

ومن هذه الالفاظ ايضا الابيض حين تطلق على
الاسود لثلا يفهم من الوصف شتمية او عيبا ومثلها
المتع للاعور ، وما يزال عامة الناس في العراق اذا
ارادوا ان يصفوا رجلا بالعمور كنوا عنه بعبارة (كريم
العين) ادبا وتهريا من سوء الفهم اذا تبادل الى الذهن
ان المتكلم قد يقصد المنتصم والعميب .

وقد ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم :
العقل على المسلمين عامة ولا يترك في الاسلام

مفرح (37) . قال الاصمعي المفرح : المثل الدين ،
وتال ابو بكر بن الاباري اي يقضى دين المفرح
من بيت المال اذا لم يجد سبيلا الى قضائه ، يقال قد
امرح فلانا الدين اذا انقله قال الشاعر :

اذا أنت لم تيرح تؤدي أمانة
وتحمل أخرى امرحتك الودائع

اراد انقلتك (38) ولفظ مفرح هذه يبدو أول
وهلة من الفاظ الاضداد ولكنها تبين أخلاق العرب عامة
والرسول صلى الله عليه وسلم خاصة في اختياره
اللفظ الذي يدخل السرور الى نفس الحزين اليانس ،
فالذي انقلته الديون ولم يجد سبيلا الى قضائها اوجب
الرسول صلى الله عليه وسلم قضاء دينه من بيت
المال وسماه (المفرح) اي الذي يجب ان يدخل الفرح
الى نفسه بدلا من اطلاق الصفة الحقيقية له وهى
(اليانس والحزين) فجات الكلمة ضدا للمعنى الاول
على الظاهر .

وقد اعتبر الخفاجى هذا الضرب من الالفاظ
التي يعدل عنها الى ما يخالفها من باب حسن الكناية،
واعتبره شرطا من شروط الفصاحة (39)

ونجد في الاخبار والنوادر حكايات طريفة في حسن
التخلص والكنائيات الجميلة ، من ذلك ما يحكى من ان
رجلا مر في صحن دار الرشيد ، ومعه حزمة خيزران
فقال الرشيد للفضل بن الربيع ما ذاك ؟ فقال اعروق
الرماح يا امير المؤمنين ، وكره ان يتقول الخيزران
ليرافقته اسم والدة الرشيد (40) .

ومن حسن التخلص مما قد يتشام منه ما ذكر
من ان المنصور بلغه خبر خروج محمد بن ابراهيم بن
عبد الله بن الحسن بالبصرة وهو في بستان له ببغداد
فنظر الى شجرة فقال للربيع : ما اسم هذه الشجرة؟
فقال : طاعة يا امير المؤمنين ، وكانت خلافا متفاعل
المنصور بذلك ، واعجب من ذكائه (41) . وواضح انه
عدل عن لفظ الخلاف - وهو اسم الشجرة التى

(34) بلوغ الارب 338/2

(35) تاج العروس مادة برش وقد تناول بعضهم لفظة
المقصود بالحديث النبوي هو البصير المؤمن .

(36) النهاية في غريب الحديث لابن الاثير 188/3 .

(37) الاضداد في اللغة لابن الاباري 197

(38) سر النصاحة : 157

(39) الكنائيات : 53

(40) ن م .

سئل عنها - الى الطاعة لما يقترن في الذهن من اشتقاق لفظي لمعنى الخلاف مثل الذي مر بنا اول البحث .

ويروي الخفاجي حادثة طريفة تتعلق بالكنايات - وان لم تدخل ضمن الالفاظ الاضداد - ولكنها تعطينا صورة عن ذوق العرب ، ودقتهم في اختيار الالفاظ المناسبة للقول قال : (وخبرني من اتق به عن رجل من اهل بغداد يضع الغزل من الذهب قال: احضرنى الوزير ابو الحسن على بن عبد العزيز المعروف بابن حاجب النعمان وزير القادر بالله ، واخرج اليّ علما مذهباً عليه اسم المنتدر بالله قد بلى ، وخلق ، وبقي فيه الذهب فقال لي : كيف السبيل الى اخذ ما على هذا من الذهب فقلت : يحرق ، فصاح صيحة عظيمة وقال : ويلك ! ما هذا التهجم ؟ اتحرق اعلام أمير المؤمنين ! وأمر باخراجه ، فدعمت وقد تارت التلغ من هيئته ، والخوف منه ، وتمعبنى اهل المجلس بالسؤال في بسط عذري بعدم الفهم لما انكره على ، فأمر باعادتي اليه ، وقال : هيه ، ما الذي تقول؟ قلت : ما يرسم سيدنا الوزير ، فقال : قل : يستخلص فقلت : يستخلص ، فقال : خذه ، وانصرف . فأخذت العلم ومضيت فأحرقته ، واحضرت له ما خرج فيه من الذهب (42) .

ومما يدخل ضمن هذه المجموعات الثلاث من الالفاظ مجموعة هي في الاصل مسميات لاشياء تؤكل او تلبس او تهدي ، ولكن دلالة الالفاظها من حيث اشتقاق بعض الاعمال منها جعل بعض مرهفي الاحساس يلبسونها معاني جديدة ، لا علاقة لها بما اطلق عليها ، او لا علاقة لها بمسمياتها . وسوف نحاول ان نستقى هذه الاخبار من كتاب مهم جدا وهو كتاب الموشى او (الظرف والظرفاء) للشوا والذبي يمكن ان يعد كتابا في رسم السلوك الاجتماعى لمجموعة من الناس مرهفوا بالظرفاء في زمانهم ، وقد رسم الشوا لهم طريق الظرف او ما اعتبر في زمانهم مثال الذوق والتادب والظرف سواء في طريقة الجلوس او اللباس او في آداب الاكل والشرب او في التهادي والمجاملة ، مما يمكن ان يعم اكثر من تعميم التطير والغال الذي

اقترن ببعض الالفاظ ، وسلوك بعض الانراد ، والنفسيات المتشابهة ، اما ما ورد في كتاب الشوا وغيره يمكن ان يعمم اكثر ليكون ظاهرة تشتمل هذه المجموعة من الناس التي كان لها دورها في مجالس الادباء ، وذوي الشأن ، وهي المجموعة التي اطلق عليها اسم الظرفاء .

- - لقد كان هؤلاء الظرفاء مرهفي الاحساس ، حادي الشعور ، يتسم سلوكهم بالادب والمجاملة ، والذوق الراقى في كلامهم مع مجالسهم ، او في مخاطبتهم ومهاراتهم مع من يحبون ، وكانوا ادباء وشعراء او ندماء اعتادوا مجالسة الادباء والشعراء وذوي الشأن .

فقد كرهوا تهادي الشقائق وهو ضرب من الورد معروف لانهم نظروا الى الحروف التي يتكون منها هذا الاسم فوجدوا ان الثلاثة الاولى منها يمكن ان تشكل لفظ الشقاء او الشقا ، كما انه يمكن تركيب لفظ الشقاق - وهو اكثر ما يخافه المحبون - ولم يشفع لهذا اللفظ كونه دالا على الورد الحزاء التي تذكر بخدود الحبيبة كما هو شأنهم مع التفاح وتهاديه . يقول الشاعر :

لا تراني طسوال دهـ

ري اهوى الشقائقا

ان يكن يشبه الخدو

د فنصف اسمه شقا (43)

واما السفرجل فانهم اشتقوا من لفظه كلمة السفر مما يوحى الى نفوسهم بالطبيعة والبعد لذا كرهوا تهاديه ، وتشاءوا منه . يقول الشاعر ، وقد اهداه بعضهم سفرجلا فرمضه قائلا :

اهدت اليه سفرجلا فتطيرا

منه وظل متيئا مستعبرا

خاف الفراق لان اول اسمه

سفر فحق له بان يتطيرا (44)

واشتقوا من لفظ (السوسن) كلمة السوء ، لذا

اعتبر بعض الشعراء اهداء السوسن تذيير سوء ، واشارة شر :

(41) سر الصناعة 157

(42) الموشى 173

(43) الموشى : 170 -